خمسة في سيارة

٩

واجمع الاصدقاء امرهم بعد هذا على ان يذهبوا الى سويسرا الالمانية فراراً من الحر الذي عمَّ فرنسا وسويسرا الفرنسوية في تلك الايام . فقالوا تذهب الى جنيف تركب سككها الحديدية النظيفة تديرها الكهربائية نزلوسرن وانترلاكن وما الى ذلك من البلاد الهلفاسية ثم نتقل عائدين الى فرنسا فبلاد البلجيك وتعود من بعدُ الى اكتراء سيارة تطوف بنا مواقع الحرب في هذه البلاد . فكان اشدهم ارتياحاً للرأي صاحبنا المصري فانه كاد يجنّنه ركوب السيارة بتصعيدها وهبوطها وقعوده فيها مقعد الاسيرطوال الطريق

فبعد ان مكثوا ليلهم في جنيف همّوا في الصباح بقطار يذهب رأساً الى عاصمة البلاد واسمها « برن » فوصلوا اليها قبل الظهر وخرجوا يتأملون عن امم ما يرى فيها وما لا يرى

فقال الرفيق الافرنسي — وكان قد زار المدينة مراراً — اما ما لا يرى فامرأة جميلة ذات هندام حسن او ذات حذاء صغير واما ما يُرى فمحلٌّ يعرف « ببئر الدببة » يحاذي حديقة يسمونها « حديقة الورد » . فقالوا هيّوا بنا الى البئر ثم الى الحديقة

وسمع صاحبنا المصري اسم « بئر الدببة » وانهُ قبلة زائري المدينة فظنهُ شيئاً كالاهرام او كابي الهول او كبئر يوسف في انقلسة ولم يشأ ان يستوضح رفاقهُ لئلا يظهر جهله بآثار المدنيات العالمية . وساروا على اقدامهم يصعّدون في طريق يرتفع رويداً رويداً فلا يصل المرء الى آخره حتى يكون حرَضاً او يكون من الهالكين . فقال صاحبنا ان « بئر الدببة » قال شرطيٌّ واقف في الطريق ها هو الى يمينك حيث ترى اربعة او خمسة من العمال العاطلين واقفين . فذهبوا فاذا بهم في بقعة ارض صغيرة بها حفرة يخالها المرء خندقاً في الارض في اسفله اثنان او ثلاثة من الدببة يروحون بحيثون ملمسين الطعام في وسط اقذار ووحول

« ما هذا ؟ ايضحك الناس من عقولنا . لقد كنت اظني آتياً لاشاهد اثراً عظيماً اطلقوا عليهِ اسم الدببة او لارى صخوراً برزت فيها تماثيل الدببة لغرض لا اعلمهُ واما ان آتي الى بقعة في حيّ مثل احياء « تحت الربع » وانظر في حفرة لارى دبًّا يلاعب دبًّا فهذا لم يخطر لي ببال » . قال صاحبنا المصري هذا ساخطاً مضيّ

ولا تسل عن ضحك الرفاق من انفسهم ومن غباوتهم فانهم كلهم كانوا ذلك المصري —

يتساءلون عن السرّ الذي جعل عاصمة سويسرا تشتهر ببرن للدببة مثل هذا الى ان قال قائل الا تعلمون ان هذه المدينة كانت في ما مضى من الزمان تسكنها الدببة وجبالها لا تزال حتى الساعة مأوى لهذا الوحش . او لا ترون ان شعارها في رايتها وفي كل مواقع العظمة منها دبٌّ اسمر . او لا تعلمون ان اسمها برن Bern وهو في لغتهم السويسرية الالمانية دبة اي جمع دب . فقال المصري اما انا فلم اكن اعلم شيئاً من هذا — ولكن هبك الامر كذلك اما رأوا ان يتخذوا دبهم الا في هذه الحفرة وفاذا يأتون به الى قلب البلد وجبالهم تموج به

لا . ايها الرفاق . اني لا امكث بعد هذا في بلد شعارهُ الدب وموضع الفخر منهُ دبٌّ واسمهُ جمع للدب . قالوا لا تيأس من رحمة الله وتعال نرَ حديقة الورد فهي على قاب قوس من هذا المكان . فسار معهم يعرج مضنىً من التعب ودخلوا الحديقة وهي اذا قيست بها حديقة « الارمان » في القاهرة عُدَّت هذه الاخيرة جنة وفردوساً . وانك لو قابلت صديقنا هذا الآن لرأيتهُ يقسم باعظم الايمان انهُ لم يرَ وردة او شبه وردة في هذه الحديقة التي يسمونها حديقة الورد

على ان في برن — ولا بدّ من اضافتها — بناء فخماً جميلاً هو مجلس نواب الاتحاد السويسري فقد زارهُ القوم فاعجبوا من حسن موقعهِ من البلد ومن جمال عمارتهِ من الخارج والداخل واتساع غرفهِ وكان اكثر ما اثار اعجاب صاحبنا هذا الخشب السويسري الذي سقفت به الغرف وقدّت منهُ المقاعد والابواب فانهُ غاية في الابداع ليس بعده غاية . اما بقية السفر فلم يعبأوا بشيء من هذا فلما قال لهم في ذلك قالوا هذا صنع حديثاً وليس عليهِ مسحة من جمال الفن القديم

فاطرق صاحبنا يقول في نفسهِ ان هؤلاء الناس لا يفتأون يحدثوني عن الفن القديم فاذا بي لا اكاد افهم للفن معنى والتفت الى الصديقة اللبنانية المتفرنسة يسألها عن معنى الفن

الفن

قالت هو الجمال يظهره لك الفنّان مرة في الحجر واخرى في الصور . تارة في الشعر وآونة في النثر وقال الانكليزي بل هو في الطبيعة فكل فن لا يحاكي الطبيعة ليس بفن

اللبنانية — عندك ايها السيد بل هو في نفس الفنان تفيض بهِ نفسهُ وخيالهُ على ما قدّمتُ من آثار

المصري — اذاً هناك رأيان في الفن احدهما رأي صديقنا الانكليزي الذي يرى الفن في محاكاة الطبيعة وهذا قول وجاهم رسكن Ruskin فانهُ رسول هذا الرأي وقد رأينا صورتهُ منقوشة في صخرة في شاموني Chamonix حيث كان يجلس يشاهد الطبيعة الفاتنة يستوحيها الدليل على ما يشير به. ورأيك ايتها السيدة اذ ترين الفنّ في خيال الفنان يريدهُ على لوح او في كتاب. وسواء اكان الامر هذا ام كان ذاك فليس من المنطق ان يُجمع الناس على شيء فنيّ جميل. لان ما اراهُ انا من جمال في الطبيعة قد لا تريهُ انت. واما تتبّع الفنانين في خيالهم فكيف يكون في متناول الجميع ؟ فخيال الفنان المصري خلاف خيال الفنان الفرنسي . فكيف تدلون لي اجماع الناس على اشياء انها جميلة كصورة للعذراء من صنع رفايل او آية من الشعر غناها هوميروس او شكسبير

الانكليزي — ان الذين عاشوا من الفنانين حتى الساعة هم الذين نظموا الحياة وعبروا عنها بادق معانيها وهذا يؤيد مذهبي فان الحياة الصحيحة الاّ الطبيعة بكل ما فيها . فشكسبير حي لا يموت لانهُ صوّر الطبيعة نفسها وجسدها تصويراً حقّاً ورفايل خلد لانهُ صوّر الحنو والعطف والطهر في صور العذراء تصويراً حقّاً .

الفرنساوي — قد يصحُّ هذا في شكسبير ولكنهُ لا يصحُّ في الصور والتماثيل

المصري — كما انهُ لا يصح في هوميروس وملتون ودانتي ومن اليهم. الجميع معاً — وكيف ذلك ؟ الامر بسيط . كلكم وكل رجل منصف يجيب اذا سئل عن آيات الفن في الشعر مثلاً فيقول انها الالياذة لهوميروس والكوميديا السماوية لدانتي والفردوس المفقود لملتن ونقول نحن في بلدنا انها المعلقات السبع . واذا لم يجب بمثل هذا عدَّ مقصراً في الثقافة . فقولوا لي ربكم من منا قرأ الالياذة او استطاع ان يأتي عليها من اولها الى آخرها. ومن منا قرأ الفردوس المفقود ومن منكم قرأ المعلقات السبع. اني اخشى ان يكون الناس في كل آرائهم مقلدين يحاكون القردة ولا يحكمون ذوقهم الخاص او رأيهم الشخصي لذلك ارى ان الفن والجمال في الفن امر نسبي لا اطلاق فيهِ شأن كل الامور الاخرى

السيدة الفنانة — انت رجل ماديّ الشعور فلا ترقص والرقص فن ولا ترى الجمال الا حيث تريده فليس اجماع الناس على شيء بالامر المنكر بل ان في روح الجماعات منطقاً وذوقاً سليمين لا تنفي فلسفتك عنهما شيئاً

الرقص

الانكليزي — (وكأنهُ اراد ان ينقل الحديث الى حيث يريد) ولماذا لا نرقص .

ان الرقص فن ورياضة بدنية ولا ينفر منهُ الاَّ ذو النيَّات السيئة

المصري — ولماذا نحسبهُ فنًّا . اكلما عزفت الموسيقى يتحتم عليَّ ان اعود بمواطني الى الغريزة الحيوانية الاولى فانفر واختطف الانثى . ان اجدادنا الاولين والامم البعيدة عن الحضارة حتى الآن كلاهما كان اذا رقص عمَّ بغتة يختطفها عنوة ويستبيحها بمظاهر قوته — فهو في اساسهِ نتيجة ميل جنسي قد لا يظهر الآن تحت ستار التقليد والعادات ولكنهُ كامن كمون كل عواطفنا الموروثة . اني افهم الفن جمالاً أتلذذه بعقلي وبقلبي وبعاطفتي ولكني لا افهمهُ خروجاً عن الرزانة الطبيعية ورجوعاً الى الغريزة الاولى اذ كان الحكم للاصوات وللاشارات مثلما هو عليهِ الامر في الحيوان الآن

الفرنساوي — اتعلم ماذا قال احد كتابنا الحاليين مشيراً الى الرقص الذي عمَّ العالم بعد هذه الحرب ؟ انهُ شبه الحرب بابرة وخزت بطن المدنية الغربية فتحركت ذات اليمين وذات الشمال كابرة تخز بطن احد الناس فانهُ لا يلبث ان يتحرك ويلتوي موجعاً . وما الرقص في نظره ، وعلى الاخص الرقص على انغام هذا الجازباند الاَّ منظراً من مناظر المدنية المتألم بطنها من وخز الابرة

الانكليزي — كانكم ابله لا قلب لهُ . فلا يدرك حقيقة الرقص الاَّ ذوو القلوب الطيبة وهذا ما أشار اليهِ احد علمائنا الطبيعيين فانهُ لاحظ ان الاطفال والخرفان والكلاب يحبون الرقص ولا يكرهون عليهِ ذلك لطيب سريرتهم . واما رجال الشرطة ورجال القانون وجميع انواع السمك فلا ترقص الاَّ نادراً واذا رقصت كان رقصها رديئاً وما ذلك الاَّ لقساوة قلوبهم . اما ديدان الارض واعضاء المجالس البرلمانية فلا يرقصون الاَّ لغرض[1] . فقهقه صاحبنا المصري قهقهة بلدية لسي معها وقار موقفهِ . وانك لا تدري أتضحك لاشارة الانكليزي الى الديدان والى أعضاء البرلمان وجمعهِ اياها في صعيد واحد ام تضاحك ليستر اهانة الرجل للبرلمانات وهو راغب في هذه النظم السياسية متفائلٌ بها خيراً

وكأنهُ ادرك حرج حالهِ فتظاهر بالتواضع وقال اما انا فلا أرقص لاني لم استطع اتقان الرقص ولا أخفي عليكم انني لو كنت احسن نقل خطاي بلباقة وخفة لما وجدت كالرقص آلة للذة العيش . فهو ابن هذا العصر عصر السرعة وتعجُّل النتيجة . فالراقص اليوم يستطيع في ليلة ما لم يستطعهُ كبار المحدثين من الشاق في سنة

(١) الاشارة هنا الى الكاتب الفرنساوي André Maurois والى العالم الانكليزي جيمس جنس

المبدأ والمصلحة

الافرنسية — اذن انت تحكم على الشيء من حيث علاقته بك لا من حيث المبدأ

المصري — كل شيء في الدنيا كذلك أيتها السيدة المحترمة

الافرنسية — فالعفاء على المبادىء بعد هذا

الانكليزي — لا . لا تبالغي ان صديقنا المصري مصيب كل الاصابة فيما يقول — فان لكل امر في العالم من الامور الادبية او الاجتماعية مرجعاً اذا استقصينا سره وجدناهُ في شخصية المرء لا في مطلق المبدأ

الافرنسية — ما فهمت

الانكليزي — اسمحي ان افسر ما اقصد اليهِ بشيء من التطويل

انهُ يستحيل على امرء ان يقوم برأي يبذل لهُ نفسهُ ونفيسهُ او يعمل يضحي لهُ بكل عزيز وغال الاَّ اذا كان هذا العمل او ذاك الرأي مما تطمئنُّ اليهِ نفسه وتوافقه عليهِ عواطفه او غريزتهُ . واني لا احب ان اقول شيئاً ينفر مني امرأة جميلة متدينة مثلك فاكشف لها عن رأيي في الذين قاموا بالديانات الناجحة دون التي ماتت في مهدها

بل اضرب لك مثلاً او مثلين من الامور الاجتماعية . فهاكِ الاشتراكية

انظري الى زعيمها كارل ماركس . هذا رجل يهودي عاش في برلين حيث لا قيمة ولا شأن لابناء جنسهِ واضطرَّ بعد ذلك ان يذهب الى لندن عاصمة اغنياء الدنيا في عهدهِ وركن الارستوقراطية . وكان فيها فقيراً . وكانت نفسه كبيرة تنظر الى الناس بعين الكره لاحتقارهم بني جنسه من ناحية ولتنعمهم دونه بملذات الحياة من ناحية اخرى . فهل تتوقعين ممن كان مثل هذا ان يقول باشتراكية « لا يكون حرب الطبقات » اساسها المكين ؟ ان الحسد والشهوة وحبَّ ما ليس في متناولهِ يملي عليهِ مبدأهُ الاشتراكي اراد ام لم يرد

وهاكِ الاشتراكي الآخر كاتبنا ولز (Wells) . هذا اثرى من كتبه وصار يُعدُّ من كبار الملاَّك اذا كتب اليوم في لندن قرأهُ غداً مائتا مليون متكلم بالانكليزية ضاحكاً لهُ باسمة. فهل تنتظرين من اشتراكيتهِ ان تكون مثل اشتراكية كارل ماركس ؟ لا . فهو يدعو الى التعاون والى المحبة بين الناس لانهُ لا يشتهي ما في ايديهم ولا يحسد احداً شيئاً . فهذا العامل الشخصي هو المكوّن الاعظم لآراء الناس ولافعالهم سواء جاهروا بهِ ام كتموه

ان المحرك الحقيقي لاعظم الثورات او الانقلابات الاجتماعية والسياسية هو الحسد والكره اللذان يشعر بهما الرجال الناهضون بالثورات للنظام الذي يقلبونهُ. ولكنهم اذا سئلوا قالوا ان الدافع الذي يحركهم هو حب العدل واقرار السعادة على هذه الارض

ومما لاشك فيهِ ان معظمهم صادق في قوله السطحي لانهُ سوق بعقله الباطن لا بعقله الظاهر

الانكليزية — اذاً كيف تعلل نجاح الانقلابات الخطيرة

الانكليزي — ان الانقلابات التي تنجح او بالحري ان الرجال الذين ينجحون في قلب النظم اقل بكثير من الذين لا ينجحون . اما الذين فشلوا فلانهم لم يعرفوا مواطن الضعف في الجماهير لتسهل عليهم قيادتها ولم يعبروا عما في ضمير الشعوب من حب السلطة والمال . اما الذين ينجحون — وهم القوابغ — فقد لبسوا عقلية الجمهور وعاطفته وميله فعرفوا مواطن الهلاك او الفوز

المصري — انا من رأيك . فاني لا ارى في كل هذه التغيرات الاجتماعية الا انتقال السلطة من يد الى يد اخرى ، فقد يكون الاستبداد تارة من فوق — من ملك او من طبقة من الاشراف . وقد يكن تارة من تحت — من جمهور يسلب ويحكم . والنتيجة في الامرين واحدة من حيث العدل المطلق او الحرية المطلقة

السيدة الافرنسية — غاضبة اذاً فلنهدم العالم . وماذا تقيمون على انقاضهِ ؟ ولنزرع الشر والفساد . وما هي النتيجة؟ ولتركل شيء اسود . فلماذا لا تنتحر وتخلص من هذه الحياة

المصري — لا . لا . ايتها السيدة . بل لننظر الى الحياة نظرة حقيقية فلا نؤخذ بالالفاظ ولا يستبدنا السادة سواء اكانوا ملوكاً ام صعاليك . فعندي ان الغرض الاسمى الذي يصح ان تسمو اليهِ التربية البيتية والمدرسية هو ان يعرف المرء حقهُ وواجبه ويعرف ان يدافع عنهما بكل انواع القوة . فاذا عرف حقهُ عرف حق جاره وحلَّ الكثير من مبادئ السيرية بين الناس محل الانانية . ومتى تغلغل في الناس شيء من فضائل الايثار وقليل من نعمة التضحية امنوا كثيراً مما يعثرون بهِ الآن

الانكليزي — انت خليط عجيب يجمع بين الخيال والحقيقة . نجدك مرة محاربًا حتى ترتفع واخرى ارضيًا حتى تهبط . هكذا انتم ايها الشرقيون

المصري — ان صحَّ وصفك لي فالعم بهِ فخراً . اكون اذاً قد حاكيت كنه حقيقة الحياة . ولكن انى لي ذلك !

سامي الجريديني